الواقعية النقدية في القصة والرواية المغربية
محمد زفزاف أنموذجا

د. بوجمعة وعلي
أستاذ باحث في اللسانيات الاجتماعية

المغرب

تاريخ الإرسال: 2019-06-06	**تاريخ القبول**: 2019/06/16

الملخص

تتناول هذه الدراسة:

•ظروف وأسباب ظهور الواقعية النقدية في الأدب العالمي كبديل للرومانسية؛ التي عجزت عن مسايرة التحولات العميقة التي عرفها المجتمع الإنساني.

•المرتكزات الفكرية والاجتماعية التي قامت عليها الواقعية النقدية.

•مظاهر تأثر الأدب العربي –خاصة الرواية والقصة– بالواقعية النقدية .

•مظاهر الواقعية النقدية في قصص وروايات محمد زفزاف ومميزاتها.

الكلمات المفتاحية: الواقعية النقدية؛ الرواية؛ القصة؛ الأدب؛ محمد زفزاف.

Résumé:

. Cette étude aborde: - Les circonstances et les causes de l'émergence du réalisme critique dans la littérature mondiale comme alternative du romantisme, qui n'ont pas suivi les profondes transformations que la société humaine a connues. - Les fondements intellectuels et sociaux sur lesquels le réalisme critique était fondé. - Les figures de l influence du réalisme critique sur la littérature arabe, en particulier le roman et la nouvelle. - Les figures du réalisme critique dans nouvelles et les romans de Mohamed Zafzaf et ses caractéristiques.

Mots clés: Réalisme critique – roman- nouvelle - littérature - Mohamed Zafzaf/

المبحث:

مقدمة:

يعتبر محمد زفزاف من القصاصين والروائيين الأوائل الذين شغلهم هاجس تطوير فن القصة والرواية المغربية، واستقر في نفوسهم طموح التطوير والتجديد والتغيير، حيث سعى – بمعية قصاصين وروائيين آخرين من جيله– إلى التقاط صور معبرة للواقع المحيط به والغارق في البؤس والضياع وتضمينها رأيا وموقفا، حيث رسم لنا صور ولوحات أدبية لواقع اجتماعي قاس يحيط به البؤس من كل اتجاه.[1] كما حاول تطوير الأسلوب القصصي والروائي إيمانا منه بعمق وصعوبة رسالته، موليا كل جهده ومهاراته لإخراج قصصه ورواياته في حلة واقعية جديدة (واقعية نقدية)، وبأسلوب سهل وبسيط ومحبوب. وقد اختمرت تجربة زفزاف ورؤيته هذه بفضل اغتناء فكره بقراءات عربية وغربية، طورت أدواته الكتابية فصار كل ما كان صعبا في نسيج القصة والرواية عنده هينا مطواعا.

1– مدخل إلى الواقعية

[1] – أحمد، المديني، فن القصة القصيرة بالمغرب: في النشأة والتطور والاتجاهات، 1980، دار العودة ، بيروت ، ص. 358.

أنتجت جدلية التاريخ والفكر حركة فكرية جديدة كنقيض للحركة الرومانسية؛ التي لم تستطع مسايرة تحولات الحياة البشرية ومجاراة التغيير؛ الذي لحق المجتمع الإنساني في جميع المجالات رغم شعارات الحرية والكرامة التي نادت بها البورجوازية، والتي مالبثت أن تحولت هي الأخرى إلى طبقة اجتماعية مستغلة تعبر عن طموح اقتصادي متنامي هدفه الربح والمال بكل الطرق والوسائل.

فأمام عجز الرومانسية عن مسايرة التحولات العميقة في المجتمع، وتمجيدها للقيم السائدة عن عدم تحليل وفهم في ظل العزلة والإغراق في الذاتية، ظهرت الواقعية كبديل لهيمنة قيم البورجوازية وما ارتبط بها من استغلال وتردي ونهب وسعي إلى الربح بكل الطرق الوسائل. يقول أرنست فيشر حول ظروف ظهور الواقعية:[2] "من تمرد الأنا الرومانطيقية المستوحدة، ومن المزيج العجيب للرفض الأرستقراطي والشعبي للقيم البورجوازية نشأت الواقعية النقدية".

إن بروز الاتجاه الواقعي مكن المبدع من أن يكون شاهدا على واقعه،[3] فروايات **تولستوي** و**ديستوفسكي** و**بلزاك** و**شارلز ديكنز** و**ستندال** و**فلوبير** مثلا،على ما بينها من تباين واختلاف استطاعت أن ترسم خارطة للعصر وتجعل من الأدب أداة تعبيرية ووسيلة انتقاد، حيث عبرت عن النفس الإنسانية وما يعتريها من صراعات ومعاناة، وأبرزت الصراع الاجتماعي والقيم السائدة في المجتمع البورجوازي.

2- الواقعية النقدية

[2]- أحمد، المديني، فن القصة القصيرة بالمغرب: في النشأة والتطور والاتجاهات، مرجع سابق، ص. 308.
[3]- م، ن، ص. 307.

ترتكز الواقعية النقدية أساسا على نقد الواقع من خلال كشف عيوبه ورفض واقع الخطإ فيه، فالأدب من المنظور الواقعي النقدي ليس نقلا حرفيا للواقع، ولا تسجيلا فوتوغرافيا له، وإنما هو إعادة خلق الواقع من خلال فرزه وانتقاء عناصره.[4] فالواقعية النقدية تتجاوز الواقع كمعطى ثابت وجامد، إلى اعتباره معطى متحرك ومتحول وقابل للتغيير، لأن الهدف ليس هو تثبيت الواقع وإنما تجاوزه نحو الأفضل،فالواقعية النقدية تبحث في خضم الواقع عن العناصر الكفيلة بتغييره وتحويله، وهذا ما يميزها عن جميع الفلسفات التي طمحت إلى تغيير العالم، فهي ترى أن بذور عناصر التغيير موجودة في الواقع، وأن القوى التي ستغير موجودة فيه أيضا،[5] فهي لا تكتفي بتصوير البؤس والألم والمعاناة وتقديمهم في صورة فنية، ولكن ترفضهم وتشجبهم وتريد محوهم وإزالتهم، ومن ثم يمكن اعتبار الواقعية النقدية رؤية جديدة للعالم على درجة كبيرة من الوعي بالتاريخ والقوى المحركة له، بالواقع وتناقضاته، وبدور الأديب الملتزم دون إلزام.

ومن حيث الشكل الفني، فالواقعية النقدية لا تفرض نموذجا معينا على المفكر والأديب، بل تترك له حرية الاختيار شريطة تحقيق العضوية بين الشكل والمضمون.

[4]- محمد، عزام، اتجاهات القصة المعاصرة في المغرب، اتحاد الكتاب العرب، الطبعة 1، 1998، دمشق، ص. 183.

[5]- م، ن، ص. 130.

فالواقعية النقدية كما يقول حسام الخطيب:[6] "تنظر إلى الواقع بدرجة من الموضوعية تؤهلها لتحليل الظواهر ...وهي أميل إلى الموضوعات المتصلة بالإنسان في حركته ضمن الإطار الاجتماعي"، أما الأدب الواقعي النقدي فهو الأدب الذي يكون انتقاديا من حيث الموقف، واقعيا من حيث الأسلوب، ويكون الانتقادي هنا اجتهاديا يعبر عن نظرة فردية خاصة إلى المجتمع تتضمن مبادئ أخلاقية واجتماعية.[7]

إن الواقعية النقدية تهدف إلى تعرية الواقع والمجتمع وفضح تناقضاتهما، وقد كان **بلزاك** يقول وهو يدرك مشكلات مجتمعه"إن المجتمع الفرنسي سيكون هو المؤرخ، أما أنا فلست سوى سكرتيرا له"، لذلك ظهرت في أدبه كل أمراض المجتمع كالشر والطمع والجشع والأنانية والوصولية وعبادة المال ... .

3- الواقعية في القصة والرواية العربية

عرفت القصة والرواية العربية المنهج الواقعي بعد الحرب العالمية الثانية، وما خلفته من مشاكل وأزمات نتيجة التحولات العميقة في الجسم الاجتماعي والأدبي، حيث جاءت الواقعية كرؤية جديدة للعالم والمجتمع والإنسان، تمعن النظر في الواقع وتختبره مجهريا وتأمليا بعيدا عن الانطباع الحسي السريع والنقل الحرفي العابر له، فهي تتجاوز الصورة الاجتماعية المباشرة إلى ما وراءها، وتقدم السلوك وأبعاده، وترسم الواقع وظلاله.

[6]- أحمد، المديني، فن القصة القصيرة بالمغرب: في النشأة والتطور والاتجاهات، مرجع سابق، ص. 302.
[7]- م، ن، ص. 308.

وعلى المستوى العربي،ظهرت الواقعية نتيجة التطور الحضاري والتاريخي الشامل الذي عرفه المجتمع العربي وتسلل إلى حياة الناس،[8] من أجل تقديم نموذج فني وثقافي يعبر عن العصر من خلال الذات والمجتمع، لذلك ارتادت القصة والرواية الواقعية قلب المجتمع فصورت نماذجه الحية أدق تصوير، بلا مثالية ولا مساحيق لغوية، بلا مسكنة أو تلفيق، بصدق وأمانة.[9]

4- الواقعية النقدية في أدب محمد زفزاف

تتمثل المرحلة الثانية من تجربة محمد زفزاف القصصية والروائية على الصعيد الفكري "في محاولة ضم شقين متكاملين لاستخلاص الحالة أو الصيغة التامة والموحدة للإنسان في العالم. يتكون الشق الأول من الواقعة المعطاة في بعدها الاجتماعي الخالص، والشق الثاني من الواقع المعطى في بعده الإنساني الخالص"،[10] والبعدان معا هما أساس التجربة القصصية الجديدة من جهة وهما ما يشكل الواقعية الجديدة (الواقعية النقدية) من جهة أخرى.

5- مظاهر الواقعية النقدية في أدب محمد زفزاف

كثيرا ما يحاول الكاتب اقتناص اللحظة ذات الطابع الاجتماعي التي تحمل مظهرا من مظاهر حياة الناس وهمومهم، لكن رصد هذه اللقطة عند زفزاف بقي مشدود النفس محدود البعد والتأثير إذ لم تكن له ظلال في مساحة أخرى من الشعور، وهذا

[8]- أحمد، المديني، فن القصة القصيرة بالمغرب: في النشأة والتطور والاتجاهات، مرجع سابق، ص. 308.
[9]- م، ن، ص. 310.
[10]- م، ن، ص. 359.

ما يضفي سمة (صفة) الدرامية على قصصه ورواياته الواقعية. هذه المساحة هي بمثابة البعد الإنساني الخالص للموضوع القصصي والروائيي، فمحمد زفزاف يعمد أن يقيم الهيكل المادي لقصته، فيكسوه لحما ويلقحه دما، فهو لا يقنع بالمفاهيم والأحاسيس والصور المباشرة المعطاة، ولكنه ينتقل إلى سبر أغوار الواقع واستكناه بواطنه ودواخله للحصول في النهاية على المأساة الخصوصية، مأساة الإنسان عامة انطلاقا من مأساة فردية.[11]

إن محمد زفزاف يبحث في قصصه ورواياته – على صعيد التأمل – في قضايا فكرية وفلسفية ذات طابع تجريدي وجودي كفلسفة "الموت والحياة" ومقولة "الأنا" وغيرهما من القضايا التي يبحث فيها الفكر الوجودي بعمق، وهذا ما يشكل الخلفية الفكرية والقاعدة النظرية لقصص وروايات المرحلة، فالواقع الاجتماعي المصور من القاص والروائي المغربي لا يعدو أن يكون جوانب محدودة يكون من التمحل لحمها بقضايا مغرقة في التأمل الفلسفي.[12] لأن حجم الصورة الواقعية قد يضيق أو يتسع يكبر أو يصغر حسب كل مبدع ومهاراته في الانطلاق من الجزء الى الكل، من البسيط الى المركب، ومن اقتناص اللحظة البارقة وجعلها إشعاعا غامرا، وهذا في الحقيقة هو ما يميز الكتابة الوثائقية عن الكتابة الرصينة الثرة القادرة على الاستمرار في ذاكرة التاريخ ودروب المستقبل إلى الأبد.

[11]– أحمد، المديني، فن القصة القصيرة بالمغرب: في النشأة والتطور والاتجاهات، مرجع سابق، ص. 360.
[12]– م، ن، ص. 361.

إن الاعتكاف على البحث والتقصي وتعميق الحقائق حول الشخصيات وربطها بقضايا الكون الكبرى والقيم والمعاني المطلقة يعكس أمرين هامين:[13]

– الأول: يتمثل في كسر طوق الواقعية القديمة الفجة القصيرة النفس، المحدودة البعد، سعيا إلى مناطق أخرى في الشخصية لم تصلها يد القاص بعد، وهذا له ارتباط واتصال بالأدب القصصي الجديد في العالم العربي الذي عني بالتحليل النفسي للشخصية.

– الثاني: يتمثل في ما آلت اليه الحركة الاجتماعية أواخر الستينيات وما عرفته من احباطات سياسية واجتماعية كان لها بدون شك أثر كبير في تغيير وتوسيع الرؤية الواقعية في بعدها الاجتماعي الصرف، وهذا سيكون له أثره (مفعوله) على أساليب الصياغة من خلال مسار تطور هذا الفن في الأدب المغربي. وهذا ما ستبلوره بعض النماذج التجريبية التي حاولت نهج سبيل البحث عن قالب أكثر مرونة وانفتاحا.

هكذا يمكن القول أن محمد زفزاف قاص وروائي واقعي نقدي يجعل من الحقل الاجتماعي مرتعا خصبا لممارسة النقد والإدانة والتعرية والحكم على الواقع، وضمن هذا الفضاء الاجتماعي تنشط حاسته القصصية والروائية وتشتغل بمزيد من الحرية من خلال الوصف والكشف وتمزيق الحجاب الهش عن الجسد الاجتماعي المريض كما يرى عبد الإلاه محب،[14] حيث تنبثق واقعية محمد زفزاف المتميزة لتجعل منه سكرتيرا

[13] – م، ن،ص. 361.

[14] – عبد الإلاه، أديب، صورة المجتمع المغربي من خلال بيوت واطئة لمحمد زفزاف، مجلة آفاق تربوية ، العدد12، 1998، ص. 174.

للحياة الاجتماعية، وهذا ما "يجعل العالم القصصي والروائي عنده (زفزاف) موسوما بالاتساع والاكتظاظ، أرشيفا من الأمكنة والأزمنة والوجوه والأحداث والعلاقات، وتجعل الصوت القصصي والروائي عنده متعدد الأوتار والطبقات، لا يقر عند وتر واحد أو طبقة واحدة".[15] ولعل واقعية زفزاف المباشرة التي لا ينفصل فيها المضمون عن الشكل هي سبب ليونة وسهولة النص القصصي والروائي عنده. يقول إبراهيم الخطيب مؤكدا هذه الحقيقة في حديثه عن روايته قبور في الماء "وليس من المبالغ فيه أن نعترف بأن زفزاف يتمتع بحس واقعي جسيم يتجلى بصورة أساسية في قدرته على إيجاد حديث حكائي ذي استقلال عن شخصيته".[16]

ويبدو الاندحار الذي يعاني منه المجتمع واضحا من خلال تبني نماذج اجتماعية يتحكم فيها قانون الصراع القائم على تناقضات طبقية تنتج عنها صراعات يومية على المستوى الفردي، فالفرد يعاني من الفقر والقهر والاستغلال الجسدي والمعنوي، كما يعاني من التفسخ والانحلال المادي والاجتماعي والأخلاقي، مما يجعله يبحث عن وسائل بديلة تخفف المأساة عنه كالخمر والمخدرات والجنس كنوع من التسكين المؤقت للجراح اليومية. وهذا هو الواقع المغربي المرصود من خلال عدسة الذات الأكثر صدقا في التعبير عن التناقض الاجتماعي السائد في قصص وروايات محمد زفزاف، والتي يمكن اعتبارها "بانوراما" تستخدم شتى الأساليب الفنية في الرواية والسرد والتقطيع والاسترجاع "الفلاش باك" من أجل إبراز كل زوايا الحدث والكشف عن

[15]- م، ن، ص. 174.
[16]- م، ن ، ص. 174.

حاضر الأبطال وماضيهم،[17] فالكاتب يصر على أن يصف الطبقات الدنيا في فقرها وتشردها وبطالتها وانسحاقها تحت أضراس الفقر والمذلة والمهانة والجوع والحرمان والحاجة، بحيث يعيش الشيوخ والأطفال متسولين والنساء بغايا والشباب منحرفين وبلا كرامة، والرجال عبيد ووقود معامل الأسياد، كما يصف على النقيض من ذلك الطبقات العليا التي تسير وتدير أقدار الآخرين وتتحكم في مصائرهم وسط عالم القوة والفتك والقمع والاستغلال.

فهموم الكاتب (زفزاف) في أعماله القصصية والروائية اجتماعية بالدرجة الأولى، لكنها ليست من ذلك النوع الأدبي الاجتماعي الذي يحض على العطف على المساكين ويكتفي بالدعوة إلى انتشال العاطلين من البطالة والمشردين من الشوارع وإنما هو "أدب جديد غالبا ما يواجه في أبطال الطبقات الدنيا أقدارهم بشجاعة، فيرفعون عيونهم في وجه الاستغلال"،[18] بل يقبلون بالتحدي ويستجيبون له، لأن ليس لديهم ما يخسرون غير بؤسهم وشقائهم.

وعلى المستوى الفني فإن أسلوب الكاتب محمد زفزاف في القصة والرواية واحد، وهو أسلوب يعتمد السرد الحكائي المبطن برؤية شعرية، تعطيه مقدرة كبيرة على اجتذاب القارئ والتأثير فيه، من خلال لغة طيعة ومريحة وبسيطة وسهلة (السهل الممتنع) مستفيدا من (تقنية السينما في البناء الفني وقص السيناريو والحوار)،[19] وهذا

[17]- محمد، عزام ، اتجاهات القصة المعاصرة في المغرب، مرجع سابق، ص. 183.
[18]- م، ن، ص. 183.
[19]- محمد، عزام ، اتجاهات القصة المعاصرة في المغرب، مرجع سابق، ص. 163.

ما يجعله في خانة الواقعية الحكائية باعتبار المميزات التي يمتلكها في السرد والحوار والتشويق والتأثير.

إن النبش النقدي اللاذع الذي يمارسه محمد زفزاف ضد المجتمع، إنما هو تصريف لطاقة الاحتجاج الحبيسة في الصدور ضد الصور القبيحة والقذرة، من خلال الإدانة المزدوجة وتقسيم المسؤولية بين الذات والموضوع، وقد يصل هذا البعد النقدي إلى درجة السادية والتشفي حينما تغدو العين القصصية والروائية سياحية غير بريئة، تتلهى بالمأساة الاجتماعية المثيرة للسخرية والشماتة، وهذا ما يجعلنا نشك في براءة الحس الاجتماعي لدى الكاتب،[20] وهذا مبرر ومتفهم إذا عرفنا طبيعة الواقعية التي يتحرك داخلها الكاتب، وهي واقعية نقدية بالأساس. فالصورة الاجتماعية التي تكشف عنها البنية القصصية والروائية بشكلها الفني الواقعي وبمضمونها النقدي/الانتقادي، تناظر البنية الاجتماعية على مستوى الواقع المحبط، وزخم المرحلة التاريخية التي أنضجت حاسة الكاتب النقدية، لان رؤيته تعبر عن وجه من أوجه إيديولوجيا البورجوازية الصغيرة في المغرب في وقت كانت هذه البورجوازية قد أخذت تمتلك الوعي الكافي لإدراك التحولات التي طرأت على المجتمع المغربي منذ الاستقلال، وقد ظلت كثير من الأصوات تنادي بضرورة ارتباط المثقف بقضايا مجتمعه وطبقته وموقعه، ليخلق أدبا

[20]– عبد الإلاه، أديب، صورة المجتمع المغربي من خلال بيوت واطئة لمحمد زفزاف، مجلة آفاق تربوية ، مرجع سابق، ص.180.

هادفا ومعبرا وصادقا يمكن من استشراف الغد.يقول محمد برادة:[21] "ليس الفناء الشعري المتعمد التفاؤل ما نريد، وليست الرواية الباحثة عن الزمن الضائع ما نتطلع إليه، وليس مسرح الكليشيهات والفكاهة الشعبية والتاريخ المزيف ما ننتظر، وليس نقد المجاملة وعلاقات الصداقة وعلاقات تبادل المنفعة ما نصبو إليه. إن لحظتنا التاريخية التي نعيش على رجاء إشراقها، تحتم علينا أن نعي التعقيدات المبالغة المكتنفة لمجتمعنا، وأن نواجهها بشجاعة وإيمان"، هذا النقد الواقعي الواضح في عبارات محمد برادة تعبر عنه معظم إنتاجات محمد زفزاف بواسطة الشكل الإبداعي التخييلي، فالكاتب يرصد الواقع الاجتماعي وينتقده بشجاعة وإيمان بعيدا عن المجاملة والمحاباة، وهناك أصوات أخرى تطالب بتعرية الواقع وكشف مظالمه. يقول محمد عابد الجابري:[22] "تعرية الواقع المؤلم الذي تعيشه الجماهير وتركيز مظالم هذا الواقع في بؤرة شعورها تركيزا يجعلها تحيا هذه المظالم كجزء من ديمومتها".

بهذا يكون محمد زفزاف ذلك المثقف الملتزم بقضايا مجتمعه، المعبر عن همومه ومشاكله، وعن آماله وأحلامه تعبيرا واقعيا نقديا، ينبذ هذا الواقع وينتقده بقوة وشجاعة في معظم أعماله إن لم نقل كلها. فهو يزاوج بين الواقعية النقدية والواقعية

[21]– محمد، برادة، الأدب المغربي واللحظة التاريخية، مجلة آفاق، العدد1، يناير، 1969، اتحاد كتاب المغرب، ص. 07.

[22]– محمد، عابد الجابري، مسؤولية المثقفين في البلدان المتخلفة، مجلة أقلام المغربية، السنة 1، العدد 2، ص. 06.

الحكائية في أسلوب فني جميل يجمع أجمل مافيهما في السرد والحوار والقص الحكائي الذي يأسر القارئ ويجعله يشعر بأنه صديق حميم.

خاتمة:

إن الواقعية النقدية كما هي عند محمد زفزاف، تسعى إلى تقديم صورة متكاملة للواقع، تعريه وتفضحه أحيانا، وتكشف عن أحزانه وتبتهج بأفراحه، فالقصة والرواية ذات الطابع الواقعي النقدي، لا تستكين لهذه الصورة ولا تقنع بها، بل تحرك سكونية هذا الواقع وتعرضه لهزات وشروخ، فيتراءى المنشود من خلال إدانة وانتقاد الوضع القائم. غير أنه إذا كانت هذه العملية لا تعطي ما هو مطلوب ومرغوب منها، فإنها تبقى مطمح كل قاص وروائي وهدفه.وهذا لا يتم إلا بمعالجة متطورة للكتابة القصصية والروائية ذاتها، من خلال استخدام أحسن وأدق الوسائل القصصية والروائية. يقول أحمد المديني:[23] "القصة الواقعية النقدية ليست مضمونا فحسب، بل هي عمل متكامل فكريا وفنيا إذا خف ميزان أحدهما اختل التوازن".

[23]– أحمد،ا لمديني، فن القصة القصيرة بالمغرب: في النشأة والتطور والاتجاهات، مرجع سابق، ص. 313.